

محاضرة

العلامة الدكتور ناصر الدين الأسد يحاضر في مركز الزاين للدراسات حول هوية وثقافة الأمة

اللغة فكر الأمة وأساس أولي من أسس الثقافة . إنها الفكر نفسه



(حاتم علي)

جميعاً رسوماً اللغة، رسوماً اللفظ، الذي يدل على هؤلا جميعاً، فإذا كنا لا نستطيع أن نفكر في شيء إلا من خلال اللغة إذن لا بد أن تكون اللغة هي وسيلة التفكير لكن هل حقيقة هي وسيلة تفكير؟ أليس هذا انتقاصاً من شأنها؟ لقد سهل علينا أن نعرف أنها أولصلتنا إلى التفكير في هذه الأمور ومن أجل هذا عدناها وسيلة لكن الحقيقة هي الفكر وبين اللغة، لا يمكن الفصل بينهما، كم من مرة نفسه، وليست مجرد وسيلة إلى الفكر، اللغة هي الفكر نفسه، وأنت لا تستطيع أن تفصل بين الفكر الإجابة القاطعة عليه، أيهما الذي يسبق الآخر؟ ولكن الذي وصلوا إليه إننا لا نستطيع أن نفصل بين اللغة وبين الفكر، هما متممجان كالجسد والروح - هذا تشبيه دينوي بسيط - وهذا ما ذهب إليه بعض النقاد قبل النظريات النقدية الحديثة. هؤلا نهبوا إلى أنك لا تستطيع أن تفصل بين اللغة وبين الأفكار، وبين الفكر، فإذا كان الأمر كذلك ووصلنا إلى أن اللغة هي فكر الأمة تبن لنا أن هذه اللغة هي أساس أولي من أسس الثقافة، إذا لم يكن الفكر هو ثقافة أو عنصر أساسيا من عناصر الثقافة، فما الذي يكون إذن عنصراً أساسيا من عناصر الثقافة؟ بعد اللغة تأتي طبيعة الحال وهي التي دائماً نستمد منها أفكارنا، إذا لم يكن من مفاهيمنا وكثيراً من قيمنا حتى أن بعضنا إذا اشتد الجدل واحتدم الحديث في موضوع من الموضوعات يستشهد ببعض شعر، فيقطع هذا البيت الشعري، ويسلم المتحدثين بما يريد صاحب هذا الاستشهاد، فمن الشعر ومن النثر ومن الحكم ومن الأمثال نستمد كثيراً من قيمنا، التي تصوغ لنا اتجاهاتنا، هذه القيم التي تصوغ لنا اتجاهاتنا وتصوغ لنا سلوكنا. ولا أريد أن أطيل في هذا، الحديث ينطبق الذي ذكرته على الفلسفة وعلى التاريخ وما فيه من خير وما فيه من غلات وما يشبه ذلك، إذن، الثقافة هي مجموع هذا التراث وقبلة الدين، الدين ليس من التراث، التراث هو من صنع البشر ولكن الدين عندنا الهي ليس من التراث، وإنما تفسيره من التراث، تفسير جهن المسيرين من التراث، فالثقافة إذن هي الجانب المعنوي وهي الجانب الروحي، الذي يتصارع مع الثقافات الأخرى لأن الجهات الاستقبالية علينا وعلى غيرنا ترى أن ثقافتها هي خير الثقافات وأنها من أجل أن يسود السلام العالم، لا بد أن تسود ثقافتها العالم أيضاً، كما أنها ترى أنه لا بد أن يسود نظامها الاقتصادي العالم، لأنه خير نظام اقتصادي في العالم، هذا رأيهم وهذه وجهة نظر، أننا لا نناقش الأمور وإنما أنا أشرح الأمور، وارتك أن لم تناقشوا كما يحلو لكم.

الثقافة والحضارة لهما ثوابت، وفيهما متغيرات، بل الدين نفسه فيه ثوابت و متغيرات، كيف؟ الدين كما تعرفون أصول وفروع، والفقه هو علم الفروع، أما العقائد والعبادات فهي أصول، تأتي إلى الفقه الذي هو علم الفروع، تذكرون مثلاً مشهوراً وعندنا أمثلة كبيرة بطبيعة الحال، فمثلاً مشهوراً هو الإمام محمد بن إدريس الشافعي، الإمام الشافعي، كان له فقه في الحجاز وفي العراق، ثم حين ذهب إلى مصر واتصل هناك بفقهه مصر وبسماحة أهل مصر، وبفقيه مصر الأكبر الليث هناك، طور بعض فقهاء، وأصبح له فقه جديد في مصر، ورأى أشياء لم يكن قد رأى في الحجاز ولا في بغداد، ولذلك لا بد أن يطور فقهاء، فأصبح له فقهان، من أجل هذا يشار دائماً في كتب الفقه حينما يذكر الشافعي إن هذا في فقهه القديم، وهذا في فقهه الجديد، فإذا كان الفقه له أيضاً متغيرات فمن الطبيعي أن يكون للثقافة وان يكون للحضارة متغيرات.

مثل آخر من أمثلة التغيير في الأمور الدينية، أي في الفقه، في علم الفروع، الخطوا إنني أقول في علم الفروع، في الفقه، وليس في الأصول الثوابت، وهو ما يقوله عادة الفقهاء لا ينكر تغير الأحكام بتغير الأزمان، وأضيف وببعض الأحيان أيضاً، والشافعي دليل على ذلك، لأن مكانه تغير، فتغير فقهاء، بتغير مكانه، أما تغير الأحكام التي هي الفتاوى، فهي تتغير بما يلائم العصر على أن لا تخرج عن ثوابت الأصول، أرجو أن نلاحظ هذا دائماً على أن لا تخرج عن ثوابت الأصول، لأنها إذا خرجت عن ثوابت الأصول ضاعت في الفضاء ضاعت في الفراغ، كل أمر لا بد أن ينطلق من أصول ثابتة، ثم بعد ذلك ينمو، يتطور، يتغير، لكن لا بد أن ينطلق من أصول ثابتة والأضاع في الفراغ ضاع في الفضاء.

والحلقه القائمة الآن هي حلقة واحدة، حضارة واحدة، كلنا نتطلع إليها ونزرو إليها فما معنى حضارة؟ ولماذا نتطلع إليها؟ ثم إذا كانت لا تتصارع ما الذي يتصارع، كل هذه أسئلة مطروحة مفتوحة لا ادعي أنني أستطيع أن أجيب عنها وإنما أترك لكم أن تشترك جميعاً في محاولة الإجابة عليها ربما كان فهمي للحضارة أنها هي الجانب المادي من الحياة الإنسانية، الجانب المادي الذي يقوم على ما في هذه الحياة من اكتشافات واختراعات وإنجازات تطبيقية علمية، قربت المسافات وصغرت ما بين العالم، قربت ما بين العالم، واختصرت الزمان واختصرت المكان، هذه الأجهزة والآلات والوسائل التي نستعملها جميعاً في حياتنا في بيوتنا وفي شوارعنا وفي ترحالنا وفي اتصالاتنا وفي سفرتنا وفي إقامتنا، كل ما اخترع على وجه الأرض وعلى البحر وفي الفضاء هذا كله حضارة، هذا هو الجانب المادي من الحضارة، ونحن نريد أن نأخذ هذه الحضارة، نريد أن نعيش بها وفيها ومعها، ولكننا نتطلع إلى أكثر من أخذها، نريد أن تكون عاملين فعالين مشاركين فيها، حتى الآن نحن نستوردها ونستعملها فهل الآن الأوان إلى أن نكتشف كل هذه العمارات الفسحة وكل هذه السيارات الفسحة وكل هذا الترف المادي الذي نعيش فيه ليس من حضارتنا، وإنما هو من تلك الحضارة التي سميتها أو وصفتها، هل الآن الأوان أن نوظف أصول الحضارة؟ وأصول الحضارة هي البحث العلمي وهل الآن الأوان أن نوظف البحث العلمي، الذي هو أصول الحضارة في بلدنا وان نسوقه إلى الإمام، حتى ينتج لنا حضارة قد تكون تطويراً للحضارة القائمة وقد تكون إضافة لأشياء ليست فيها، وبذلك هل الآن الأوان أن نكون مشاركين فعالين وكنت أن أقول هل الآن الأوان أن تسلم نحن مرة أخرى زمام حلقة جديدة من حلقات الحضارة كما تسلمنا زمام الحلقة مدة قرون تزيد على ستة أو سبعة قرون.

هذا هو فهمي للحضارة، أما الثقافة، فقد أصبح حيناً نعرفها هي الجانب المعنوي أو الروحي قلنا أن الحضارة هي الجانب المادي فالثقافة هي الجانب الروحي أو الجانب المعنوي، هي أولاً ثقافة الأمة هي أولاً عقيدتها الدينية، التي تزدها بكثير من القيم والمفاهيم وأنماط الحياة وأنماط السلوك في عقيدتها الدينية، وليس بالضرورة أن تكون عقيدة دينية سماوية، فالوثنيين والمجوس وعبيد البقر كل هؤلاء لهم عقيدة ولهم عقيدة دينية يستمدون منها قيمهم ويستمدون منها مفاهيمهم ويستمدون منها أنماط حياتهم، وفيها نحن وفي غيرنا من لا يؤمن بدين ولا يؤمن بعقيدة، هذه عقيدة أيضاً يستمد منها مفاهيمه ويستمد منها سلوكه ويستمد منها أنماط حياته هذا الذي قصدته بالعقيدة الدينية، إلا أنني دمتنا نتحدث عن العرب عن الثقافة العربية ففقطنا الدينية هي الإسلام، وأنا أتحدث عن الإسلام هنا من ناحية ثقافية ليشارك غير المسلم مع المسلم في الجانب الثقافي من الإسلام، وانتم تذكرون أن هذا أمر سبقني إليه كثيرون، فقال ربما فارس الخوري في سوريا وهي قوله تنسب أحياناً إلى مكرم عبيد في مصر قال: أنا مسيحي ديناً ولكنني مسلم ثقافة، فإن من دمتنا نتحدث عن الثقافة، لا بد أن نبين ما هي أصول هذه الثقافة.

الأصل الأول: هو العقيدة الدينية التي لا شك في أنها هي المزود الرئيسي للإنسان في حياته، حتى ولو كان ليس له دين لها وحده دين، عدم وجود الدين دين عنده يستمد منه مفاهيمه، غير المتدين يستمد دينه من عدم تدينه، ومفاهيمه وسلوكه وما يشبه ذلك، بعد الدين لا بد أيضاً من أن نتحدث عن اللغة، والحديث عن اللغة حديث طويل لا أحب أن أزعجكم به لكن يكفي أن أقول أن اللغة ليست وسيلة للتعبير، كما يذهب كثيرون، وإنما هي أكثر من وسيلة للتعبير، قيل هي وسيلة للتفكير، إذن هي وسيلة للتعبير وهي وسيلة للتفكير، ما معنى وسيلة التفكير، هل نستطيع أن نفكر في شيء ليس له لغة، ليس له لفظ، ليس له اسم، حتى الغيبيات الدينية وحتى الخرافات والأساطير، كيف أصبحنا ننصورها وكيف أصبح يرسمها الرسامون من ملائكة وشياطين والجنة والنار كيف أصبحوا يرسمونها، يتمثلونها، يتصورونها، إلا بعد أن أخذت الجنة عندنا لفظه جنة، وعند غيرنا اللفظة الموجودة في لغاتهم، فهم إذن يعرفونها من خلال اللغة، من خلال اللفظ، ولا نستطيع البتة أن نفكر في شيء أو أن ننصوره أو أن نتمثله إلا إذا كانت لغة، أي كان له اسم، أي كان له لفظ لفظي يدل عليه يوحي لنا بصورته، فإننا نحن الذين نتحدثوا الشيطان، نتحدثوا آلهة الإغريق أو رسوماً على القباب في العصور الوسطى، صور الملائكة هؤلاء

حتى إن اثنين من المغمرين يجمع التعريفات جمعوا ما قيل من تعريف في الثقافة والحضارة في ستة اثنتين وخمسين وتسمايات ألف فرجع مجموع هذه التعريفات مئة واثنين وستين تعريفاً، فنحن سنترك موضوع التعريفات جانباً وأطرح عليكم فهمي الشخصي، هل الثقافة هي الحضارة؟ هل هما مترادفتان؟ وهل في اللغة عامة مترادفتان؟ ثم هناك مصطلح آخر ثالث وهو المدنية، أين نضع المدنية من الحضارة، هل هي الحضارة؟ أو هي شيء ثالث يختلف عن الحضارة؟ فهمي الشخصي أن المدنية خارج نطاق حديثنا الآن قد تعود إليها أثناء الحديث أو في آخر الحديث، ولكن الثقافة تتخلط كثيراً بالحضارة، وأنتم ما راكتم تذكرون موضوع صراع الحضارات، والجلية التي أثبتت حول هذا الموضوع، هل الحضارات تتصارع؟ وهل صيغة الجمع هي الصيغة الصحيحة؟ هل عندنا في علمنا حضارات؟ أو هي حضارة واحدة؟ فإذا كانت حضارة واحدة، كيف يمكن أن تتصارع هذه الحضارة؟ وإذا كان المقصود من صراع الحضارات صراع حضارة قائمة مع حضارات تاريخية انتهت ولا وجود لها، فهذا من أعجب العجائب، كيف تتصارع حضارات لا وجود لها في الوقت الحاضر مع حضارة قائمة في الوقت الحاضر؟ هذه أمور عقلية لا بد من أن يتبنت عليها الباحث وأن يشرحها شرحاً يقنع القارئين أو يقنع السامعين.

منذ قرنين أو ثلاثة قرون، اليابان حينما أرادت أن تنهض اتجهت نحو هذه الحضارة القائمة وهي حلقة جديدة من حلقات الحضارة الإنسانية، تسلم زمامها الآن العرب منذ قرنين أو ثلاثة، كانت أزمتهما في السابق يتسلمها كثير من الشعوب الأخرى، عندنا حضارة آشورية، بابلية، عندنا حضارة مصرية قديمة، حضارة إغريقية، حضارة فارسية ثم جاءت حلقة الحضارة الإسلامية، ثم بدأت النهضة الأوروبية ومالت كفة الحضارات الآن أو حلقات الحضارة نحو الغرب وبرزت هذه الحلقة بوضوح منذ قرنين أو ثلاثة، فالإيبان حينما أرادت أن تنهض اتجهت إلى الغرب، فيجاءة الروس حينما أرادوا أن ينهضوا ببلادهم اتجهوا إلى الغرب، وكذلك محمد علي في مصر حينما أراد أن يحدث مصر اتجه إلى الغرب، فكانت إذن حضارة واحدة قائمة موجودة، أقول هذا وأكرره، لكي نظهر زيف شعار صراع الحضارات واحدة ذات حلقات تاريخية متتابعة،

الدكتور ناصر الدين الأسد وهؤلاء المثقفون هم القادرون على الإقناع والقادرون على التأثير وعلى إحداث التغيير.

وكذلك فإن الثقافة العربية بعناصرها المختلفة، من لغة وآداب وقيم ومبادئ ومعتقدات، تمتلك من مقومات البقاء والقوة والقدرة على إجتراح آليات لتحصين الهوية العربية ما لا نظير له، وهي ذات طاقة غير محدودة في خدمة مصالح الأمة.

إن الثقافة هي الحل، وهي العلاج لازمة الهوية عند العرب، ونتوقع في حديث العلامة الأستاذ الدكتور ناصر الدين الأسد عن دور الثقافة العربية في حماية وحدة الهوية.

العلامة الدكتور ناصر الدين الأسد

لقد استمعت إلى تقديمين كبيرين أضعاعاني عن نفسي حقيقة وأحرجاني غاية الحرج، لأن كل ما سأقوله لن يرقى إلى مستوى هذا التقديم ومن هنا لا بد من أن أبدأ بالاعتذار إليكم، فموضوع الثقافة العربية، والهوية العربية، كثر الكلام فيهما والتأليف والمحاضرة، والأحاديث، بحيث أصبح المتحدث لا يعرف ولا يستطيع أن يضيف شيئاً جديداً أو أنه سيلوك كلاماً قديماً، وأنا أترك الموضوع لكم بعد أن تنتهي من هذا الاجتماع، هل أضاف شيئاً جديداً مني ومنكم إلى ما كنتم تعرفونه، أنا لا أظن أعرف من الموضوع أكثر مني يعرفه كل واحد منكم، وفيكم من هو أفصح مني لساناً، وأثبت جناناً وهو أقدر على أن يتحدث في هذا الموضوع مني، ولو أخبرت لترك هذا المجلس لكم أنتم لتحدثوا فيه.

موضوع الهوية والثقافة العربية، موضوع جدي موضوع خلاقي كثر فيه الخلاف والجدل وتشعبيا حتى مسا وجود هذين الطرفين، حتى وصل الأمر ببعضهم إلى أن يتساءل بل إلى أن ينكر هل هناك هوية فعلاً للأمة، هل هناك حقيقة ثقافة للأمة، أو أن الثقافة فردية لأفراد في الأمة والهوية فردية لأفراد في الأمة، كل هذا قيل وتحدثوا فيه طويلاً وكتبوا فيه كثيراً من أجل هذا ما سأطرحه عليكم الآن وإنما هو رأي وأنا أتمثل بقول الإمام أبي حنيفة النعمان: قولنا هذا رأي وهو أحسن ما قدرت عليه، من قدر على من أحسن منه فهو أول بالصواب مني، من أجل هذا أحب أن أقول لكم إن في موقفنا خاصاً من فهم ولا أقول تعريف لأن تعريف الثقافة وتعريف الحضارة مثالة للجميع،

يشرف مركز الرأي للدراسات أن يكون إحدى قسم الأرن الشامخة العلامة الأستاذ الدكتور ناصر الدين الأسد ضيفتنا اليوم محاضرا في واحدة من أهم الموضوعات التي تشغل حاضرتنا وستشغل مستقبلنا ومستقبل الأجيال القادمة ومرحبين وشاكركين الأستاذ الدكتور صلاح جرار، نائب رئيس الجامعة الأردنية لتفعله بإدارة الحوار، وترحب بالسيدات والسادة الحضور شاكرين لهم مشاركتهم هذا اللقاء والذي نأمل أن يتسع للإطلالة على عقل وفكر أحد أهم أمم الثقافة واللغة العربية في الوطن العربي لنجرب ولإيهاب في الهوم والتحديات التي تواجه هوية وحدة الثقافة العربية، وهو ما نعتقد أنه الأكثر إلحاحا في وقت تواجه فيه الأمة و على درجة من الخطورة ما يتهدد هويتها وثقافتها الإنسانية، التي راكمتها عبر قرون، و طغيان ثقافة واحدة على العالم وتجريد الأمم والشعوب من مقوماتها وخصوصياتها الثقافية والغاء هويتها الوطنية وقيمها الأخلاقية والإنسانية ومن أجل مواكبة المتغيرات في العالم في الجوانب الحياتية كافة لا بد أن تكون الأمة العربية قادرة على التصدي لتلك التحديات، وصياغة أسئلة الثقافة والهوية تهديا للمسار أمام المهتمين والباحثين لمواجهة ما يحدث بثقافة وهوية الأمة من أخطار .. وخير من يجب عن الأسئلة التي تثيرها هوم الأمة هو العلامة الدكتور ناصر الدين الأسد.

الأستاذ الدكتور صلاح جرار

انه لما بيعت على السعادة أن نلتقي في هذا النهار البهي بحضوركم كي نشرع باباً للحوار، مع أستاذنا الكبير العلامة الشهر الأستاذ الدكتور ناصر الدين الأسد الذي له من اسمه في نصرة الدين والثقافة والأمة نصيب كبير، لنحاوهره في وحدة الثقافة العربية ووحدة الهوية، ومن أولى من أستاذنا بأن يكون نجم هذا اللقاء، ومرجعنا في موضوع الثقافة العربية وهوية الأمة، فهو من أبرز رواد الفكر العربي في العصر الحديث، وله قصب السبق في كثير من ميادين الثقافة والفكر، بدأ من الشعر الجاهلي مروراً بالشعر الوسيط والشعر الحديث إلى اللغة، والنقد وحوار الثقافات وحوار الأديان وأصول التربية والتعليم وغير ذلك، وهو إلى ذلك من المؤسسين لكل ما يصب بالثقافة العربية ووحدة الأمة، وما دمتا يصدد الحديث عن وحدة الهوية فإن الدكتور الأسد رمز من رموز هذه الوحدة، فانه وان كان ينتسب للأردن مولداً ومستقراً، إلا انه نجم له مكانته المرموقة في الوطن العربي، فكنا ما نشره أو أسهم في نشره هو للأمة، وكل من يتابع فكر ناصر الدين الأسد يجد انه نابض بالحرص على مصالحة الأمة ولا يحيد عن حب العرب والعربية، وثقافة العربية وانه نذر جهده العلمي كله فيما ينفع الأمة وأجيالها، تشهد على ذلك مؤلفاته الكثيرة مثلما تشهد عليه سيرته، أستاذاً جامعياً وسفيراً ووزيراً للتعليم العالي ومؤسساً ورئيساً للجامعة الأردنية ورئيساً للمجمع الملكي لبحوث الحضارة الإسلامية حين كان يسمى المجمع الملكي، وغير ذلك من المواقع التي ترك فيها أثراً لا تحصى على نبي بصيرة.

إن إقامة حوار حول موضوع الثقافة العربية ووحدة الأمة يأتي في الزمن المناسب وهو الزمن الصعب، فالهوية العربية مهددة بكثير من الأخطار من قبل أعدائها الذين يسعون إلى شق صفوفها بكل الوسائل، ومهاجمة قواعدها الفكرية والثقافية وتعزيز القطريات، والتركيز على الهويات الضيقة الطائفية والمذهبية والعرقية وحتى الجهوية والعشائرية وغير ذلك.

ويحاول أعداء الأمة استغلال ما تعاني منه الأمة من حروب وهزائم وأوضاع اقتصادية صعبة لتحقيق أهدافها الماكرة، إن تفكك هوية الأمة إلى هويات ثانوية ضيقة قد أخذ بالظهور في كثير من الأقطار العربية وهو يهدد أقطارا عربية أخرى، ولو استمر الحال على ما هو عليه اليوم، لأصبحنا في خطر لا يعلم عواقبه إلا الله تعالى والراسخون في العلم.

إن المحافظة على وحدة الهوية هو مسؤولية الثقافة والمثقفين بالدرجة الأولى، ومسؤولية الثقافة، لما تكتنزه من طاقات وقوى في داخلها ومسؤولية المثقفين من أهل الرأي والفكر والمعرفة، ولدى الأمة العربية من المثقفين الجذريين الذين يملكون إرادة قوية وانتصافاً قومياً راسخاً ويتمتعون بمقدرة فائقة على الذود عن هوية الأمة وحمايتها من أمثال ضيفنا هذا النهار الأستاذ

الأسد :

الثقافة لها أصولها الثابتة ولا تكون ثقافة الأمة إلا بها، ولها متغيرات تحتاج إليها من أجل أن تواكب تطور العصر، وتلاحق الأحداث

كل ثقافة في الدنيا، فيها دعوة إلى القوة وفيها دعوة أيضا إلى مقاومة الغازي من يعتدي عليك.

كل عربي يجب أن يكون علمانيا حديثاً وبغير ذلك لا نستطيع أن نتقدم إطلاقا.

الثقافة هي الجانب المعنوي وهي الجانب الروحي، الذي يتصارع مع الثقافات الأخرى لأن الجهات المستقبوية علينا وعلى غيرنا ترى أن ثقافتها هي خير الثقافات وأنها من أجل أن يسود السلام العالم، لا بد أن تسود ثقافتها العالم أيضاً، كما أنها ترى انه لا بد ان يسود نظامها الاقتصادي العالم.

